Al Jinan الجنان

Volume 14 Article 10

2021

# Islamic Containment of non-Arab Populations

Omar tadmori
*jinan university*, tadmori@hotmail.com

Follow this and additional works at: https://digitalcommons.aaru.edu.jo/aljinan

Part of the History of Religion Commons, and the Islamic World and Near East History Commons

## Recommended Citation

tadmori, Omar (2021) "Islamic Containment of non-Arab Populations," *Al Jinan الجنان*: Vol. 14 , Article 10.
Available at: https://digitalcommons.aaru.edu.jo/aljinan/vol14/iss1/10

This Article is brought to you for free and open access by Arab Journals Platform. It has been accepted for inclusion in Al Jinan الجنان by an authorized editor. The journal is hosted on Digital Commons, an Elsevier platform. For more information, please contact rakan@aaru.edu.jo, marah@aaru.edu.jo, u.murad@aaru.edu.jo.

**أ. د. عمر تدمري**
كلية الآداب والعلوم الانسانية
قسم التاريخ الإسلامي
جامعة الجنان

**Prof. Omar tadmori**
Faculty of Literature and Humanities
Department of Islamic History
Jinan University

# الإحتواء الإسلامي للشعوب غير العربيّة

# Islamic Containment of non-Arab Populations

DOI: 10.33986/0522-000-014-010

لعلّ أهم ما يسترعي الباحثين وهم يدرسون الحياة السياسيّة في الدولة الأمويّة، ذلك الظهور الواضح للعناصر غير العربيّة على مسرح الأحداث، من: فُرس، وروم، وأقباط، وجراجمة، وغيرهم، وهم يشاركون في فتوحات الدولة العربية الإسلاميّة ويقاتلون أبناء جِلْدتهم أو دينهم، ويُسهمون في بناء الأسطول الإسلامي، ويتولّون قيادته وقيادة الجُند، ويتسلّمون المناصب الرفيعة، حتى إنّهم يصلون إلى إمرة المدن العربيّة. وهذه ظاهرة جديرة بتسليط الأضواء عليها، من حيث قدرة العنصر العربي على احتواء العناصر والقوميّات غير العربية، وتحويل أبناء الفُرس والروم وغيرهم إلى بُناة للدولة العربية الإسلامية وحُماة لأراضيها، وكذلك قدرة الإسلام والمسلمين على تطويع أبناء الطوائف الأخرى لتعمل في خدمة الدولة الإسلاميّة، وفي عصر عُرف لدى البعض بأنه "عصر التعصّب الأموي للعرب والعروبة"، فشارك الروم، والفُرس، والأقباط، والأنباط، والزُّط، والجراجمة، وغيرهم من الأحباش والبربر، فيما بعد، إلى جانب العرب المسلمين في أشهر مواقعهم البرّية، ومعاركهم البحرية، وفي مقدّمتها غزو قبرص، ورودس، وأرواد وكيزيكوس اليونانية، وصِقلّية، وموقعة "ذات الصواري"، وحصار القسطنطينيّة، وفي الدفاع عن حدود الدولة العربية الإسلامية في الثغور البرّية والبحرية وعند الحدود المتاخمة لدولة الروم البيزنطية.

**النصارى الوطنيّون**

وتمدّنا المصادر التاريخيّة بروايات كثيرة تؤكّد هذه الظاهرة في وقت يسبق العصر الأموي، إذ ما وطئت جيوش المسلمين أرض الأردنّ عام ١٤ هـ، حتى انضمّت إليهم القبائل العربية النازلة في تلك النواحي، من: لخم، وجذام، وغسّان، وعاملة، وبَلْقَيْن، وقُضاعة، ثم راح أهل "فِحْل" من النصارى "الوطنيّين" يراسلون المسلمين، وهم متردّدون، فكانوا يقدّمون رِجْلاً ويؤخّرون أخرى، وهم يقولون:

" .... يا معشر المسلمين، أنتم أحبّ إلينا من الروم وإنْ كانوا على ديننا، أنتم أوفَى لنا وأرأف بنا، وأكَفُّ عن ظُلْمنا، وأحسنُ ولايةً علينا، ولكنهم (أي الروم) قد غلبونا على أمرنا ومنازلنا"[١].

وتغلّب الشعور والانتماء القومي على الاعتقاد الدينيّ الذي فرضه الحاكم الأجنبي (الرومي)، "فمنهم من حمي للعرب وغضب لهم، وكان ظهور العرب أحبَّ إليهم من الروم، وذلك من لم يكن منهم على دينه راسخاً"[٢].

---

١- تاريخ فتوح الشام، للأزدي البصْري (ت ٢٣١ هـ)- تحقيق عبد المنعم عبد الله عامر، القاهرة ١٩٧٠، ص: ١٤٠،

٢- تاريخ مدينة دمشق، لابن عساكر (طبعة دار الفكر) ج ٤٠/ ١٣٠، تاريخ بيزنطية، لنعيم فرح، دمشق، ١٩٧٨. ص: ٩٨، أرمينية بين البيزنطيين والخلفاء الراشدين في ضوء كتابات المؤرّخ الأرمني بيفوند، د. فايز نجيب إسكندر (سلسلة مؤرّخو الأرمن في العصور الوسطى) مصر،١٩٨٢، ج١/ ١٧، تاريخ حروب وفتوحات العرب في أرمينية، جيفون Chévond- Histoire de guerres et des conquettes des Arabes en Arménie . ch1، p: 2

ويذكر "البلاذُري" أن بني تنوخ وغيرهم أرسلوا إلى خالد بن الوليد: "إنهم عرب وإنهم إنّما حُشِروا مع الروم، ولم يكن من رأيهم حربه، فقبل بهم وتركهم"[٣].

وذكر "القاسم بن سلّام" في كتاب (الأموال) قال: "حدّثنا هشام بن عبد الله بن قيس قال: كنت فيمن تلقّى عمر بن الخطّاب مع أبي عُبيدة مَقْدَمه من الشام، بينما عمر يسير إذ لقيه المقلّسون من أهل أذرِعات بالسيوف والرَيحان"[٤].

ولما فتح المسلمون مدينة حلب اعتنق حاكمها الرومي "يوقنّا" الإسلام، وتَسمّى بعبد الله، وهو احتال على الروم في كلٍّ من طرابلس وصور وسلّمهما للمسلمين ليُظهر حُسن إسلامه[٥]، وكان هذا الفتح الإسلامي الأول لطرابلس عام ١٨ هـ، ثم فتحها القائد الصحابي "سفيان بن مجيب الأزْدي" للمرة الثانية عَنْوةً في أوائل خلافة عثمان بن عفّان رضي الله عنه عام ٢٥ هـ. فأتى معاوية بن أبي سفيان- وكان والياً على بلاد الشام- بجماعة من يهود الأردنّ وأسكنهم فيها[٦]، ولم يسكنها غيرهم لبضع سنين. ولما انفرد بالخلافة قام بنقل قوم من الفُرس وأسكنهم فيها وفي عِرقة، وجبيل، وبيروت، وصيدا، وصور[٧]. ثم استأمن جماعة من الروم فأَذن لهم معاوية بالإقامة في طرابلس، ولهذا كان الوالي على طرابلس في عهد "عبد الملك بن مروان" (٦٥- ٨٥ هـ/ ٦٨٥- ٧٠٥ م) وفي عهد ابنه "الوليد بن عبد الملك" (٨٦- ٩٧ هـ/ ٧٠٥- ٧١٥ م) قائداً رومي الجِنس يُدعى "سُحَيم بن المهاجر الرومي"[٨].

**الفرس**

وكان على قيادة مراكبها الحربية في البحر "الليث بن تميم الفارسي" وأخوه "أبو خُراسان الفارسي"[٩]، و "سفيان الفارسي"[١٠]. وفي أيام "هشام بن عبد الملك" (١٠٥- ١٢٥ هـ/ ٧٢٤- ٧٤٣ م) كان على مدينة صور أمير فارسيّ الأصل هو "خالد بن الحسفان الفارسي"[١١].

٣- فتوح البلدان، للبلاذري ١/ ١٤٤

٤- كتاب الأموال، لابن سلّام، ٢٢٣، المسيحية في أرض الشام في أوائل الحكم الإسلامي، د. صالح الحمارنة، (المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام) عمّان، الدار المتحدة للنشر ١٩٧٤، ص: ٥٥٣.

٥- فتوح الشام، للواقدي (ت ٢٠٧ هـ)، القاهرة ١٣٨٦ هـ، ج٢/ ١٧.

٦- فتوح البلدان ١/ ٥١، تاريخ دمشق (مخطوط التيمورية ١٠٤١ تاريخ) ج١٦/ ٧٧، تاريخ الفاخري، لبدر الدين بكتاش الفاخري، (بتحقيقنا) صيدا، بيروت، المكتبة العصرية، ١٤٣١ هـ/ ٢٠١٠، ج٢ / ٤١٢.

٧- كتاب البلدان، لليعقوبي (ت ٢٨٤ هـ) نشره دي غويه- ليدن، ١٨٩١، ص: ٢٣٧، فتوح البلدان ١/ ١٧٥.

٨- فتوح البلدان ١/ ١٩٠، أنساب الأشراف، للبلاذري ٥/ ٣٠٠، الكامل في التاريخ، لابن الأثير (بتحقيقنا) ج٣/ ٣٦١، بغية الطلب في تاريخ حلب، لابن العديم ٩/ ٤١٨٧، ٤١٨٨، لبنان من الفتح الإسلامي حتى سقوط الدولة الأموية (تأليفنا)، طرابلس، جرّوس برس، ١٤١٠ هـ/ ١٩٩٠م، ص: ١١٣ و١٣٩، ١٤٠، و٢١٥ و٢١٨.

٩- تاريخ دمشق (مخطوط التيمورية) ٣٦/ ١٩٧، ١٩٨.

١٠- تاريخ دمشق، (مخطوط التيمورية) ١٥/ ١٢٢.

١١- تاريخ دمشق، (مخطوط التيمورية) ٤٦/ ٧٦٧.

وكان "هشام" أيضاً أول من أحدث دواوين العطاء، حسب رواية بعض المؤرّخين، لأنه فرض لعيال الأعاجم وأبناء الفُرس من أهل بعلبك وأنطاكية مبلغ خمسة دنانير، ولم يفرض لهم أحد قبله[١٢]. وكانت بعلبك تشهد خليطاً من السكان قبل الفتح الإسلامي، وهم من الروم والفرس والعرب والنَبَط، وقد نصّ عليهم كتاب الصُلح الذي عقده معهم "أبو عُبيدة بن الجرّاح"[١٣] بين عامي ١٤ و١٥ هـ. ولا شكّ أن الفُرس الذين كانوا فيها تحت إمرة قاضيها ووالِيها الصحابي "سُفيان مجيب الأزْدي" شاركوا في فتح طرابلس الشام حوالي سنة ٢٥ هـ/ ٦٤٥ م. وفي سنة ٣٥ هـ/ ٦٥٥ م، خرج "سفيان" من بعلبك بالفُرس وبخيل له سواهم لاقتفاء أثر "عبد الرحمن بن عُدَيس" في جبال لبنان، حين هرب مع أصحابه من قَتَلة "عثمان بن عفّان" من السجن ببعلبك[١٤]. وقام "عبد الملك بن مروان" بإعطاء فُرس بعلبك خُمُس مدينة طرابلس فسكنوها في عهده[١٥]. وكان "معاوية" قد سبقه فنقل جماعة من الفُرس بين سنتي ٤١ و٤٢ هـ/ ٦٦١ و٦٦٢ م، إلى مدن الساحل الشامي، وإذا تفحّصنا كتب التراجم والطبقات ورجال الحديث لَوَجدنا كثيراً من المحدّثين والأعلام الذين يغلب على بعضهم نسبة "الفارسي" ممن نُقلوا من البصرة وغيرها إلى سواحل الشام، فكانوا يرابطون ويحدّثون ويَغْزون في آنٍ معاً[١٦].

**الأقباط**

أما الأقباط واحتواء العروبة لهم، فتُفيدنا المعلومات التاريخيّة عن مشاركاتهم العملية إلى جانب المسلمين في غزواتهم ومعاركهم البحرية ضدّ البيزنطيّين، وإسهامهم الفعّال في صناعة المراكب وفي قيادتها أثناء القتال على حدٍّ سواء، إذ كانوا مرحّبين بالفتح العربي الإسلامي، منذ بدأت طلائع القائد الصحابي "عمرو بن العاص" تصل إلى حدود مصر الشرقية في شبه جزيرة سَيناء. حيث ذكر المؤرّخ المصري "أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحَكَم" (ت ٢٥٧ هـ) أنه كان بالإسكندرية- عاصمة مصر وقتذاك- أُسقُف يقال له "أبو ميامين" (لعلّه تصحيف: بنيامين)، فلما بلغه قدوم عَمرو بن العاص إلى مصر كتب إلى القِبْط يُعلِمهم أنه لا تكون للروم دولة، وأن مُلْكهم قد انقطع، ويأمرهم بتلقّي عمرو. فيقال: إن القبط الذين كانوا بالفَرَما- وهي أول حدود مصر مع الشام- كانوا يومئذٍ أعواناً لعَمرو. ثم يقول إنه خرج مع عَمرو "جماعة

١٢- تاريخ الخلفاء، لمؤرّخ مجهول، نشره بطرس غريازنيويج، موسكو، ١٩٦٧، ص: ٢٩٩، دواوين العطاء في الأمصار في صدر الإسلام، د. زريف المعايطة، دراسة في مجلّة المؤرّخ العربي، بغداد، ١٤١٤ هـ/ ١٩٩٤م، العدد ٤٧، ص: ١٠٨.

١٣- فتوح البلدان ١/ ١٥٤، تاريخ دمشق (مخطوط التيمورية) ٢٠/ ٤٠٠، وطبعة مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٨١ (تراجم: عبد الله بن جابر- عبد الله بن يزيد) ص: ٣٦٨، ٣٦٩، وطبعة دار الفكر ٢٨/ ١٣٥، ١٣٦.

١٤- تاريخ دمشق (مخطوط التيمورية) ٣٦/ ١٠٢، ١٠٣، (دار الفكر) ٣٥/ ١٠٧- ١١٥ رقم ٣٨٩٠، تاريخ الإسلام للذهبي- بتحقيقنا (عهد الخلفاء الراشدين) ٥٣١، ٥٣٢، الصحابة في لبنان (تأليفنا) ص: ٨٦.

١٥- تاريخ دمشق (مخطوط التيمورية) ١٦/ ٧٨.

١٦- ذكرنا جماعة منهم في كتابنا: لبنان من الفتح الإسلامي حتى سقوط الدولة الأموية، ٩٤، ٩٥.

من رؤساء القِبط وقد أصلحوا الطرقات وأقاموا لهم الجسور والطُرُق، وصارت لهم القبْط أعواناً على ما أرادوا من قتال الروم[١٧].

وليس موقف أُسقُفّ الإسكندرية إلّا تصديقاً للأحاديث النبويّة الشريفة التي رواها الصحابة عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. فقد روى عمر بن الخطّاب رضي الله عنه أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: "إنّ الله عزّ وجلّ سيفتح عليكم بعدي مصر فاستوصوا بقِبطها خيراً، فإن لكم منهم صِهراً وذِمّة"[١٨]. والمعروف أن أبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام تَسرّى بهاجَر القِبطيّة، فولدت له إسماعيل عليه السلام. كما تسرَّى محمد عليه الصلاة والسلام بمارية القِبطيّة، فولدت له إبراهيم، ومن هنا كانت المصاهرة وصِلة الرحم.

وعن "مسلم بن يَسار" أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: "استوصوا بالقِبط خيراً فإنكم ستجدونهم نِعم الأعوان على قتال عدوّكم"[١٩].

وحدّث "أبو سَلَمة بن عبد الرحمن" أنِ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أوصى عند وفاته أن يُخرَج اليهود من جزيرة العرب، وقال: "الله الله في قِبط مصر، فإنكم ستظهرون عليهم ويكونون لكم عُدّة وأعواناً في سبيل الله"[٢٠].

ولقد أسهم الأقباط في فتح جزيرة قبرس مع الفاتحين المسلمين من الصحابة في سنة ٢٨ هـ/ ٦٤٩ م، ونتبيّن ذلك مما أورده "أبو نُعَيم الأصبهاني" والحافظ "الطبراني" إذ قالا: لما قفل الناس من غزو قبرس وعليهم معاوية ومعه عامّة صحابة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الذين كانوا بالشام، أخرج معاوية غنائم قبرس إلى أنْطرطوس (طرطوس) من ساحل حمص، ثم جعلها هناك في كنيسة يقال لها كنيسة معاوية، ثم قام في الناس فقال: إني قاسمٌ غنائمكم على ثلاثة أسهُم: سهم لكم، وسهم للسُفن، وسهم للقِبط، فإنه لم يكن لكم قوّة على عدوّ البحر إلّا بالسفن والقِبط. فقام "أبو ذَرّ الغفاري" فقال: "بايعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على ألا تأخذني في الله لومةُ لائم، أتقْسِمُ يا معاوية للسُفُن سهماً، وإنّما هي فَيْئُنا؟ وتقسيم للقِبط سهماً وإنّما هم أُجراؤنا؟"، فقسّمها معاوية على قول أبي ذَرّ[٢١].

---

١٧- فتوح مصر وأخبارها، لابن عبد الحكم (ت ٢٥٧ هـ)، طبعة نيويورك، ١٩٣٢

١٨- فتوح مصر وأخبارها، لابن عبد الحَكَم (٢٥٧ هـ)، طبعة دار الفكر، بيروت، ١٤١٦ هـ/ ١٩٩٦ م، ص: ٥١

١٩- المصدر نفسه، ص: ٥٢.

٢٠- المصدر نفسه، ص: ٥٢.

٢١- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم الأصبهاني (ت ٤٣٠ هـ)، بيروت، دار الكتاب العربي ١٩٦٧، ج٥/ ١٣٤، مُسند الشاميين، للطبراني (ت ٣٦٠ هـ) تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٩ هـ/ ١٩٨٩ م، ج٢/ ٧٣، ٧٤، رقم ٩٤٠، تاريخ دمشق (دار الفكر) ٦٦/ ١٩٣، مختصر تاريخ دمشق ٢٨/ ٢٩٤.

إن في هذا النص إشارة واضحة إلى مشاركة القبط في غزو قبرس، ومَيْل معاوية إلى إشراكهم في الغنائم تقديراً لدورهم.

ويتجلّى اشتراك القبط مع المسلمين في الموقعة البحرية الكبرى المعروفة بذات الصواري، عندما خرج الأسطول البحري من سواحل مصر بقيادة "عبد الله بن أبي السَرْح" ومعه مراكب للأقباط، حيث يذكر شيخ المؤرّخين "محمد بن جرير الطبري" في معرض تأريخه للموقعة، أن "محمد بن حُذَيفة" تنابَذ وقائد الأسطول المصري "ابن أبي السرْح"، وأقسم "ابن أبي السرْح" ألا يركب "ابن حُذَيفة" معه، فقال: "ابن حُذَيفة": "فأركب مع المسلمين؟ قال: اركبْ حيث شئتَ. فركب في مركب وحده ليس معه إلّا القِبط، حتى بلغوا ذا الصواري، فلقوا جموع الروم في خمسمائة مركب أو ستمائة، فيها "القُسطَنطين بن هِرَقْل"[٢٢].

ويذهب المؤرّخ "ابن أعثم الكوفي" إلى أبعد من ذلك حين يقول: إن المركب الذي كان فيه معاوية وزوجه وأخته وأولاده وهو في الطريق إلى غزو قبرس، كان يقوده ملّاح قِبطي يُدعى "طَلْيا"[٢٣].

وحين خرج الإمبراطور "قنسطانْز" وولّى مُدبراً في موقعة ذات الصواري صاح ابن أبي السرْح بالقِبط النواتيّة (سائقي السفن)، ألا مَن قتل رجلاً من الروم فله ثلاثة دنانير. فقتلت القِبط منهم في ذلك اليوم قريباً من سبعماية رجل[٢٤].

وروى "سعيد بن منصور" (ت ٢٢٨ هـ)، وهو شيخ للإمام مسلم صاحب كتاب الصحيح في سُنَنه حديثاً رواه الإمام الأوزاعي (ت ١٥٧ هـ)- وهو شاهد عيان- أن القبط كانوا يشاركون المسلمين في حصار القسطنطينية إلى جانب جيش القائد "مَسْلَمة بن عبد الملك بن مروان"، مدّة أربعة عشر عاماً، وحين أُمِر برفع الحصار عنها سنة ٩٩ هـ/ ٧١٨ م، تعرّض أحد المراكب- وجميع بحّارته من القبط- لعاصفة قويّة قطّعت أشرعته وعرّضته للغرق، فاستولى عليه الروم البيزنطيّون، وأخذوا القبط أسرى واستعبدوهم مدّة إلى أن سنحت لهم الفرصة فغافَلوا الروم وهم نيامٌ سُكارى، وفرّوا بالمركب بعد إصلاحه وشحنه بالسلاح، وساعدتهم الريح فوصلوا إلى ميناء بيروت، واجتهد الفقهاء في مسألة المركب والقبط وما معهم من متاع، وما حُكم ذلك في الإسلام، فأمر الخليفة "عمر بن عبد العزيز" أن يُمنح القِبط المركب بكل ما فيه من متاع وسلاح لصدق جهادهم في الروم، على أن يُعطوا الخُمس فقط من الغنائم إلى بيت المال[٢٥].

---

٢٢- تاريخ الرسل والملوك، للطبري (ت ٣١٠ هـ) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٣، ج٣/ ٢٩١.

٢٣- الفتوح، لابن أعثم الكوفي ٢/ ١١٨.

٢٤- المصدر نفسه ٢/ ١٣٠

٢٥- سُنَن سعيد بن منصور بن شُعبة الخُراساني المكي (ت ٢٢٧ هـ)، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥، القسم الثاني من المجلّد ٣/ ٢٩٤ رقم ٢٧١١.

وكانت جاليات قبطية لا تزال تسكن مدن ساحل الشام حتى ما بعد منتصف القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، بدليل مشاركتهم في تشييع جنازة الإمام الأوزاعي (١٥٧ هـ/ ٧٧٤ م) مع المسلمين والنصارى واليهود إلى ضاحية بيروت الجنوبية، المُسمّاة قديماً قرية حنتوس[٢٦].

ويؤكّد "أبو عبد الله بن أبي بكر الزُهري" (من علماء القرن ٦ هـ/ ١٢ م) أن الأقباط كانوا يسكنون أيضاً مدينَتي صور وعكا[٢٧]. وهذا يعني أنهم كانوا ينتشرون على طول سواحل الشام وفلسطين.

**الجَرَاجمة**

هم قوم كانوا يسكنون مدينة الجرجومة على جبل اللُّكّام، عند معدن الزاج فيما بين بَيّاس وبوقا، بالقرب من أنطاكية. وقد مرّ الاحتواء العربي لهم في عدّة أدوار، ووَاجه بعض المصاعب حتى تمّ احتواؤهم في العصر الأموي، وباتوا يشكّلون فرقة في جيوش المسلمين في مطلع القرن الثاني الهجري.

وتبدأ قصّة علاقات المسلمين بالجراجمة منذ حركة الفتح لشمالي الشام في عهد الخليفة عمر بن الخطّاب، إذ يروي "البلاذُري" أنه لما قدم أبو عُبَيدة بن الجراح إلى أنطاكية وفتحها في سنة ١٥ هـ/ ٦٣٧ م، لزم أهل الجرجومة مدينتهم، وكان أمرهم إلى بِطْريق أنطاكية وحاكِمهم، وهَمُّوا باللحاق بالروم، إذ خافوا على أنفسهم فلم يتنبّه المسلمون لهم، ولم يُنبّهوا عليهم، وعندما نقض أهل أنطاكية وغدروا بالمسلمين، وجّه إليهم أبو عُبَيدة من فتحها ثانية، وولّاها "حبيبَ بنَ مَسْلَمة الفهري" فغزا الجرجومة، فلم يقاتله أهلها ولكنهم طلبوا الأمان والصلح فصالحهم على أن يكونوا أعواناً للمسلمين وعيوناً ومسالح في جبل اللكّام، وأن لا يؤخذوا بالجزية، وأن يُنَفَّلوا أسلابَ من يقتلون من عدوّ المسلمين إذا حضروا معهم حرباً في مغازيهم، ودخل من كان في مدينتهم من تاجر وأجير وتاجرٍ من الأنباط وغيرهم، وأهل القرى في هذا الصلح، فسُمّوا الروايف[٢٨]، لأنهم تلوهم وليسوا منهم، ويقال: إنهم جاؤوا بهم إلى عسكر المسلمين وهم أرداف لهم فسُمّوا روايف، فكان الجراجمة يستقيمون للوُلاة مرة ويَعْوَجّون أخرى فيكاتبون الروم ويُمالئونهم على المسلمين[٢٩]. ولذلك عُرفوا بالمَرَدة لكثرة تمرّدهم على العرب والبيزنطيين على حدٍّ سواء.

والجراجمة في الأصل من بلاد فارس، وقد خرجوا مع "سيف بن ذي يَزَن" إلى اليمن

---

٢٦- تقدمة المعرفة لكتاب الجرح والتعديل، لابن أبي حاتم الرازي (ت ٣٢٧ هـ)، طبعة حيدر أباد ١٢٧١ هـ/ ١٩٥٢ م، ج١/ ٢٠٢، تاريخ دمشق (مخطوط التيمورية) ١٥/ ٧١.

٢٧- كتاب الجغرافية، للزُهري، أبي عبد الله محمد بن أبي بكر، (ق ٦ هـ)، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينيّة، (ل.ت)، ص: ١٢٨.

٢٨- ظلّت هذه التسمية شائعة حتى القرن ٥ هـ/ ١١م.

٢٩- فتوح البلدان ١/ ١٨٩، معجم البلدان ٢/ ١٢٣.

لمساعدته في حربه ضدّ الأحباش، فعُرفوا هناك بـ "الأبناء"، وفي صنعاء بـ" بني الأحرار"، واستوطنوا بعد ذلك في البلاد، فعُرفوا بالكوفة بـ "الأحامرة"، وبالبصرة "الأساورة"، وبالجزيرة "الخضارمة"، وبالشام "الجراجمة". ولأُميّة بن أبي الصَّلْت في "بني الأحرار" قوله وهو يُنشد "سيفَ بن ذي يَزَن":

لا يطلب الثأرَ إلّا كابن ذي يَزَن ... في البحر خيّم للأعداء أحوالا

حتى أتى ببني الأحرار يَقْدَمهم ... تُخالُهم فوق متن الأرض أجبالا

للهَ دَرُّهُم من فتيةٍ صبروا ... ما إنْ رأيت لهم في الناس أمثالا

بِيضٌ مرازبةٌ، غُلْبٌ أساورةٌ، ... أُسْدٌ تربَّتْ في الغيضان أشبالا[1]

وبعضهم يعرّف الجراجمة بأنهم: قوم من العجم بالجزيرة، ففي حديث وهْب قال: قال طالوت لداود عليه السلام: أنت رجل جريء، وفي جبالنا هذه جراجمة يجترمون الناس، أي لصوصٌ يستلبون الناس وينتهبونهم، ويقال: الجراجمة نَبَط الشام. قال ابن برّي: ومنه قول وجزة:

لو أن جمْع الروم والجراجما[2]

وكان الجراجمة في الأصل من جوار «مَرعَش» المعروفة قديماً جرمانيقية، ثم انتقلوا إلى شمالي الشام واتخذوا مدينة الجرجومة عاصمة لهم[30]. وكذلك عُرفوا بالجراجمة نسبة إلى جرمانيقية، وبالجراجمة نسبة إلى الجرجومة، وهما من أصل واحد، ذكرهما المؤرّخ "ابن الأثير" في حوادث سنة ١٠١ هـ/ ٧٢٠م[31].

إذن، بدأت العلاقات بين المسلمين والجراجمة في دورها الأول في عهد الفتح أيام الخليفة عمر بن الخطّاب، فاتخذهم المسلمون عيوناً لهم ومَسَالح ترصد الدروب عند جبل اللكام على الحدود المتاخمة للدولة البيزنطية، ورفعوا عنهم الجزية، وسمحوا لهم بالحصول على نصيبهم من الغنائم إذا حضروا معهم الحرب، وهذه معاملة فريدة لم يحظ بها غيرهم من رعايا الدولة العربية فيما نعتقد.

على أن الجراجمة قلبوا ظهر المِجَنّ في عهد معاوية فأظهروا العداء للمسلمين، وشاركوا البيزنطيّين في حملتهم البحرية التي استهدفت سواحل الشام في سنة ٤٩ هـ/ ٦٦٩ م. وقد ذكرتهم المصادر اليونانية القديمة باسم "المَرَدة".

---

٣٠- تسريح الأبصار فيما يحتوي لبنان من آثار- هنري لامنس- بيروت ١٩٨٣- ج٢/ ٥١.

٣١- الكامل في التاريخ (بتحقيقنا)- ج٤/ ١٢٧.

ويُلاحظ ان البلاذُري لم يورد تفصيلاً لغزوة الروم هذه، كما لم يُشِر إليها غيره من المؤرّخين المسلمين، وقد أشار إليها المؤرّخ اليوناني "ثيوفانس" (ت ٨١٨ م) فقال: "في سنة ٦٦٩ للمسيح دخل المَرَدة لبنان واحتلّوا كل ما يقع بين الجبل الأسود والمدينة المقدّسة، وانضمّ إليهم كثير من أبناء البلاد والعبيد والأسرى، فبلغ عددهم في مدّة وجيزة عدّة آلاف"[٣٢].

وكلمة "المَرَدة" المستَخدمة هنا هي كلمة فارسية مُفردُها: "مَرْد" (Marde) ومعناها: الشجاع. وأُطلِق على الجراجمة أيضاً اسم "المارديّة" (Mardaite وهي تسمية بيزنطية[٣٣].

وعاد الجراجمة فساعدوا الروم في غزوة جديدة حيث انتزعوا مدينة حماة من المسلمين مغتنمين فرصة وفاة معاوية، ناقضين الهدنة، وعندما قصد ابنه "يزيد" استردادها اعترضه أهل الجبال وردّوه عنها في سنة ٦٠ هـ[٣٤].

واستمر خطرهم قائماً في أيام عبد الملك بن مروان، ثم في أيام الوليد بن عبد الملك[٣٥]، إلى أن أثبتوا مع النَبَط- بعد ذلك- صدق عهدهم تجاه المسلمين، ونجح هؤلاء في احتوائهم حتى مطلع القرن الثاني للهجرة، على الأقلّ، حيث تراهم يشكّلون جزءاً من عسكر "مَسْلَمة بن عبد الملك" حين خرج بأهل الشام لقتال "يزيد بن المُهلَّب" في البصرة سنة ١٠١ هـ/ ٧٢٠ م. ونقف على ذلك في نصّ خطبة "ابن المهلَّب" التي أوردها "ابن الأثير" ومنها قوله: "... يقولون: جاء أهل الشام ومَسْلَمة، وما أهل الشام؟ هل هم إلّا تسعة أسياف، سبعة منها إليّ، وسيفان عَلَيّ، وما مَسْلَمة إلّا جرادة صفراء أتاكم في برابرة، وجرامقة، وجراجمة، وأنباط، وأبناء فلّاحين، وأوباش، وأخلاط...."[٣٦].

ويظهر أن بعض الجراجمة سكنوا مدينة حمّاة، ولهذا يوجد حتى الآن حيٌّ بها يسمّى حيّ الجراجمة[٣٧].

---

٣٢- تاريخ الموارنة، للأب بطرس ضوّ، بيروت، ١٩٧٠- ج١/ ٢٨١، الموارنة في التاريخ، متّي موسى، دمشق، قدمُس للنشر والتوزيع، ٢٠٠٤، ص: ٢٦١ و٢٧٦، ديونيسيوس التلّمحري.
Tal Mahri In Michael the great, Chronicle , Book 11, Chapter 13, 437, and 11, 455 of the French translation.

٣٣- دائرة المعارف الإسلاميّة (مادّة: مردة)- ج١١/ ١٥٠، ١٥١، ومفرد جراجمة: جرجماني، كما ورد في كتاب الأغاني، في قصيدة لأعشى حمدان. والجراجمة نصارى على شيء من الفتور في عقيدتهم. (تاريخ بيروت، لصالح بن يحيى، تحقيق الأب لويس شيخو، ص: ١٧ بالحاشية)، وانظر عن المردة في مجلّة المشرق، لهنري لامّنس، بيروت، ١٩٠٢، العدد ٥/ ٨٢٦- ٨٣٠، والمردة والجراجمة في المشرق، لأنستانس الكرملي، مجلّة المشرق ١٩٠٣، العدد ٦/ ٣٠١-٣٠٩، وتسريح الأبصار، لهنري لامنّس ١١ و٤٥-٤٨، والموارنة في التاريخ، متّي موسى، ٢٥٩- ٢٨٥.

٣٤- أخبار الأعيان في جبل لبنان، طنّوس الشدياق، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٥٤، ج١/ ٢٠٢.

٣٥- راجع فتوح البلدان ١/ ١٨٩، ١٩٠.

٣٦- الكامل في التاريخ (بتحقيقنا) ج٤/ ١٢٧، وفي أنساب الأشراف، للبلاذري- تحقيق محمود الفردوس العظم، دمشق، دار اليقظة العربية، ٢٠٠٠م- ج٧/ ٢٦٣، ٢٦٤ "وما مَسْلَمة إلّا جرادة صفراء وما الباس إلّا نسطوس بن نسطوس أتاكم في برابرة وجرامقة وجراجمة وأنباط وأبناء فلّاحين وأوباش أخلاط وأشلاء اللحم وأقباط".
وقال: نسطوس بن نسطوس هو العباس بن الوليد بن عبد الملك (أنساب الأشراف ٧/ ٢٧٢).

٣٧- أنساب الأشراف ٧/ ٢٦٤، الحاشية رقم ١.

وممّا يُذكر عن الجراجمة أنهم اتصلوا بالدولة البيزنطية في عام ٨٨ أو ٨٩ هـ/ ٧٠٨ م فأتاهم قوم من الروم من قِبَل الإسكندرونة وروسُّس (Roussos)، وتجهّز للقيام بغارات على أطراف الدولة الأمويّة، فوجّه "الوليد بن عبد الملك" إليهم ابنه "العباس" مع "مَسْلَمة بن عبد الملك" في جيش كثيف، وحاصراهم حتى فتحا مدينتهم الجرجومة[38]، وقتلا منهم مقتلة عظيمة. ثم أعطيا الأمان لمن بقي منهم، وعاهَداهم على أن:

ينزلوا بحيث أحبّوا من الشام.

يُجرى على كل امرئٍ منهم ثمانية دنانير (في السنة).

يُجزَى على عيالهم القوت من القمح والزيت، وهو مُدّيان من قمح وقسطان من زيت.

لا يُكرَهوهم ولا أحد من أولادهم ونسائهم على ترك النصرانية.

لا يكرَهوا على ارتداء لباس المسلمين.

لا يؤخذ منهم ولا من أولادهم ونسائهم جزية.

أن يغزوا مع المسلمين فيُنفّلوا أسلابَ من يقتلونه مبارزة.

أن يؤخذ من تجاراتهم وأموال موسِريهم ما يؤخذ من أموال المسلمين.

ثم قام "مَسْلمة" بتخريب مدينتهم ونقل من بقي من أهلها وأسكنهم جبل الحوّار وسنح اللولون[39] وعَمق تِيزين. وانتقل بعضهم إلى حمص فسكنوها. أمّا بطريق الجرجومة فتحوّل مع جماعة إلى أنطاكية فنزلها، ثم هرب بعد ذلك إلى بلاد الروم[40].

**الأنباط**

أمّا الأنباط أو النَبَط، فهم من السُريان النصارى، ويغلب على حياتهم الزراعة والفلاحة، وكانوا ينتشرون في أنحاء بلاد الشام والعراق، وخاصة في المناطق الزراعية، وكان جَمعهم موفوراً في البقاع ونواحي بعلبك وداخل المدينة أيضاً وهذا ما أكّده كتاب الصلح الذي أبرمه أبو عُبيدة بن الجرّاح مع أهلها، ومنهم "إيليا" أسقُف بعلبك السُرياني الذي يرد اسمه بين رؤساء الكهنة في رسالة مؤرّخة في سنة ٩٩٥ يونانية، وهي الموافقة لسنة ٦٢ هـ[41].

---

٣٨- يُسمّيها خليفة بن خياط العُصفُري (ت ٢٤٠ هـ): "جرثومة" ويذكر أن الموقعة كانت عام ٨٨ هـ. (تاريخ خليفة بن خياط- تحقيق د.أكرم ضياء العمري، بيروت، مؤسسة الرسالة ودار القلم، طبعة ثانية، ١٣٩٧ هـ/ ١٩٧٧ م، ص: ٣٠٢، تاريخ دمشق (دار الفكر) ٥٧/ ١٤٤ و ٥٨/ ٣١.

٣٩- اللولون أو ليلون هو جبل سمعان اليوم.

٤٠- فتوح البلدان ١/ ١٩٠، ١٩١، تاريخ اليعقوبي ٢/ ٢٨٣، تاريخ دمشق (دار الفكر) ٥٧/ ١٤٣، ١٤٤، و٥٨ /٣١ وفيه إن "مَخْرمة بن سليمان الوالبي المدني" كان يرابط في سواحل حمص ودمشق، وإنه خرج في صائفة "مسلمة" و"العباس" التي استعملها "الوليد بن عبد الملك" فشتوا بطوّانة وافتتحوها، وفتحوا جرجومة". وانظر: الدعوة إلى الإسلام، لتوماس أرنولد ٨٢، والموارنة في التاريخ، لمتّي موسى ٢٧٦، ٢٧٧.

٤١- تاريخ ميخائيل السرياني الكبير، تعريب مارغريغوريس صليبا شمعون، حلب، دار ماردين، ١٩٩٦، ج٢/ ٣٥٨ و٣٦٠ و٣٦٢.

وقد سبق أنْ قدّمنا في أول هذا الفصل ما كان يقوله الأنباط في فِحْل بالأردُنّ عندما جاءهم المسلمون فاتحين. وقال: "ابن أعثم الكوفي" في معرض حديثه عن الفتح الإسلامي لبلاد الشام: "كان خالد بن الوليد يوجّه الكتب إلى أمراء الأجناد مع أنباط الشام الذين كانوا عند المسلمين، وكان هؤلاء الأنباط قوماً نصارى غير أنهم إلى المسلمين لبرّهم أمْيَلُ بهم، وصِلتهم إياهم، فكانوا فيوُجاً[٤٢] للمسلمين وجواسيس، وكانت الروم (البيزنطيّون) لا يتّهمونهم في شيءٍ من ذلك[٤٣]. وعملوا عيوناً لأبي عُبيدة، فكانوا يأتون إليه بأخبار الروم وتحشّداتهم، وقد أخبر أبو عُبيدة خالدَ بن الوليد إن "هؤلاء جواسيسنا من أنباط الشام قد جاؤوا إليّ خبّروني أن أهل بعلبك في عشرين ألفاً..."[٤٤]"، وجاء في كتاب بعث به أبو عبيدة إلى الخليفة أبي بكر يقول فيه: "إن عيوني من أنباط الشام أخبروني أن أوائل أمداد ملك الروم قد وقعوا عليه..."[٤٥]". كما كان أبو عبيدة يأتمن الأنباط على البريد، وهو أخطر ما يكون في الحرب وعند لقاء العدوّ، وهو ما يُعرف بسلاح الاتصالات الآن، فحين أراد الكتابة إلى الخليفة عمر عن الوضع العسكري في بلاد الشام أرسل الكتاب مع فَيْج سريع من أنباط أهل الشام[٤٦].

وحين نزلت جموع الروم بأجنادَين سرّح خالد بن الوليد مع أنباط الشام نُسَخاً من كتاب إلى الأمراء يحثّهم فيه على الخروج لقتال العدوّ. وكان هؤلاء الأنباط مع المسلمين يكونون عيوناً لهم وفيُوجاً. وكان المسلمون يرضخون لهم ويُعطونهم. ودعا خالد الرسولَ الذي يبعث به إلى "شُرَحبيل بن حَسَنة" فقال: كيف علمُك بالطريق؟ قال: أنا أدلّ الناس بالطريق. قال: فادفع هذا الكتاب إليه وحذّره الجيش الذي ذكر لنا أنه يريده وخُذ به وبأصحابه طريقاً تعدل به عن طريق العدوّ الذي قد شخص إليه، وتعجل إليه حتى يقدم علينا بأجنادَين. فخرج الرسول إلى شُرَحبيل، وخرج آخر إلى عَمرو بن العاص، وآخر إلى يزيد بن أبي سفيان[٤٧].

بل إن أحدهم يذهب إلى القول صراحة إن "منصور بن سرجون" - وهو الاسم العربي ليوحَنّا الدمشقي- هو الذي بنى اسطولاً في ميناء طرابلس ليحارب به أبناء دينه الروم[٤٨].

---

٤٢- الفيوج: واحدها الفَيج، وهو رسول السلطان الذي يسعى على رجليه، وهو فارسيّ معرّب. وقيل هو الذي يسعى بالكتب.

٤٣- كتاب الفتوح لابن أعثم، ١/ ١٤٤.

٤٤- كتاب الفتوح ١/ ١٧٥.

٤٥- تاريخ فتوح الشام، للأزدي البصْري ٤٤.

٤٦- كتاب الفتوح ١/ ١٨٧.

٤٧- تاريخ فتوح الشام، للأزدي البصريّ، ٨٧، ٨٨.

٤٨- تاريخ العرب للدكتور فيليب حتّي- بيروت، دار الكشاف للطباعة ١٩٦١- ج١/ ٢٠٣ن القدس الآن، كتاب فيه بحث للمطران جورج خضر، بعنوان "القدس"- نشره اتحاد المهندسين العرب، بيروت ١٩٩٩- ص ٩٣، وجاء في دراسة د.صالح الحمارنة "المسيحية في أرض الشام في أوائل الحكم الإسلامي" بحث مُقدّم في المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام، ونشرته الدار المتحدة للنشر بعمان ١٩٧٤- ص: ٥٥٣: إن المنصور بن سرجون (سرجيوس) قد تعاون مع المسلمين في تسليم دمشق للعرب، ومنصور هذا آراميّ الأصل. وهو والد يوحنّا الدمشقي المعروف.

### الزُّطّ

بعد استقرار حركة الفتح الإسلامي في بلاد الشام قام معاوية بنقل قوم من زُطّ البصرة والسبايجة[٤٩]، وهم من أصول هندية، إلى سواحل الشام، في سنة ٤٩ هـ أو ٥٠ هـ/ ٦٧٠ م، وأنزل بعضهم في أنطاكية، وقد أُطلق اسمُهم على المحلّة التي نزلوا فيها، فعُرفت بمحلّة الزُّطّ. وانتشروا فيما بعد في نواحي أنطاكية، فكان ببُوقا من أعمال أنطاكية قوم من أولادهم يُعرفون بالزُّطّ، وهم من الهنود[٥٠].

ولقد طبّق "الوليد بن عبد الملك" سياسة معاوية أيضاً، فنقل إلى أنطاكية قوماً من الزُّطّ السنْد في أيامه (٨٦- ٩٦ هـ/ ٧٠٥- ٧١٥ م) ممّن حملهم محمد بن القاسم الثقفي، عاملُ "الحَجّاج بن يوسف" حين كان على السنْد، فبعث بهم "الحَجّاج" إلى الشام، فنقلهم "الوليد" إلى أنطاكية مع جواميسهم. ويبدو أن جماعة منهم نزلوا جنوباً إلى "لبنان" وسكنوا قرية "عَيْتا"، وكثُر بها جمْعهم حتى نُسِبت إليهم وصارت تُعرف باسم "عيْتا الزُّطّ"[٥١].

وهكذا نرى احتواء العروبة والإسلام للعناصر والإثْنيات غير العربية منذ وقت مبكر، وكان لبعض تلك العناصر حضور واضح وقويّ في مُجريات الأحداث في العهدين الراشدي والأمويّ.

---

٤٩- وقع في المطبوع من: فتوح البلدان ١/ ١٩٢، وأنساب الأشراف، للبلاذُري- بيروت ١٩٧٩، ص: ١٠٦، ١١٢ "السيابجة" بتقديم الياء على الباء، والصحيح ما اثبتناه بتقديم الباء على الياء. فقد جاء في: تاج العروس، للزبيدي- تحقيق د.حسين نصار- الكويت ١٩٦٩- ج٦/ ص٧ "السبايجة": قوم ذوو جَلَد من السند والهند يكونون مع رئيس السفينة البحرية يبذرقونها، وواحدهم: سبيجي. وهكذا أثبتها الأستاذ محمد أسعد طلس في كتابه "تاريخ الأمّة العربية (عصر الأتساق) بيروت ١٩٥٨- ص ٨٠ نقلاً عن "المفحص".

٥٠- فتوح البلدان ١/ ١٩٢، التنبيه والإشراف، للمسعودي (ت ٣٤٦ هـ) بيروت ١٩٦٨، ص: ٣٠٧-٣٠٨.

٥١- عيتا الزُّطّ: هي الآن بلدة بقضاء بنت جبيل، تبعد عن بيروت ١١٤ كلم، وعن صيدا ٧٠ كلم. وترتفع ٦٨٠ متراً عن سطح البحر. (جنوب لبنان- الطبيعة والإنسان- د.علي فاعور- بيروت، مؤسسة الريحاني ١٩٨٥- ج١، ٢٧٧) ويجعلها د.إلياس القطّار (في البقاع) وهذا غلط. انظر كتابه: لبنان في القرون الوسطى، بيروت، ٢٠٠٣، ج١/ ٣٠.